اخلاق الدمشقيين ردٌّ

لجناب الدكتور بشارة افندي زلزل

حبذا كل اعتراض يرد على مقالتي في اخلاق الدمشقيين اذا كان مصدرهُ حرّية الضمير وغايتهُ اظهار الحقيقة بالبراهين العلمية الراهنة وحبذا المناقشة الادبية اذا كان من فوائدها اثارة الخواطر للنهوض من ورطة المذلة والخسف وكشف القناع عن محيا الفضيلة الوضاح وتمكين حاسات الشهامة والمروءة والشرف في افئدة المتصفين بها رغبةً في اعلاء شأن الوطن واسعاد معالمهِ على اننا نحن معاشر الذين ينطقون بالضاد لفي اشد الاحتياج الى من ينفخ ببوق الحرّية قصد احياء عظام فخرنا الرميمة فمن لي بمن اثار الله بصائرهم يجاهرون بهذه الخلال الحميدة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولامر واضح ان ليس في هيئتنا الاجتماعية من هم اولى من الدمشقيين بمسابقة الامم في مضمار التمدن والعروج في مراقي الفلاح اذا رُوعيت شروط حسن الائتلاف ومُهّدت سبل النجاح وهم والحمد لله حائزون طبعًا على خصائص تولهم رفعة المقام كما ابنت في مقالتي المشار اليها التي حمل بعضهم ظن السوء على مواخذتي بها متوهمين اني قد ندّدت فيها باطوارهم والله يعلم انني لم اقصد الوقيعة والتنديد كما انني لم اعتمد المداهنة والتدليس ولكنني قد غرت للوطن غيرة ذوي النفوس الابية عن احتمال الضيم وسلكت مسلك علماء الاخلاق الذين لا يقتصرون في وصفهم ذرّيةً او فصيلةً او سبطًا من البشر على تقرير الصفات الطبيعية بل يبينون الصفات الادبية ايضًا مع ايضاح نسبتهم الى غيرهم من الشعوب ولا يضربون صفحًا عن ذكر ما تستلزم الحال اصلاحهُ كما يظهر للذين يطالعون كتبهم المؤلفة في هذا العلم الخطير. فلو كان صاحب الرسالة المعنونة بدمشق واهلها خيرًا به لظفر بالغلبة في مضمار الجدل راغمًا انوف المعارضين . وكفى نفسهُ مؤونة التعب بتسطير تلك الرسالة (التي اشكرهُ لاجلها على ثنائهِ عليّ بما لست من اهلهِ) واغناني عن اضاعة الوقت اذ دفعني الى كشف الستار عما تضمنتهُ من الاوهام التي لا تقوى على البرهان فاقول :

قال صاحبنا الكاتب الاديب" ان بعض من لهم بالعلم والعمل اليد الطولى وهم بشر ما يقال في اخلاق الدمشقيين ادرى واولى منكرون على ما اشرت اليهِ" الخ فليت شعري هل يسوغ لمن شرّف الله قدرهُ بالعلم والعمل انكار الحقائق الظاهرة والى يوافق على قولهِ عالمٌ عامل وكانهُ مغالطة واضحة او مواربةٌ فاضحة كما سيتضح . ثم ان وجد من هو ادرى فاوجه كونهِ اولى . ألست احد ابناء الوطن وعضوًا من اعضاء الهيئة الاجتماعية الذين يجب عليهم ذمةً وليافةً

القيام بما يتوقف عليهِ نجاحهُ فان الهيئة الاجتماعية لا تنمو ولا تستقيم امورها بدون تعاون اعضائها كلٌّ بما يستطيع بهمة ونشاط . اوليس لي حرّيةٌ تخوّلني الحقوق المقرّرة لكلٍّ من ابناء الجنس البشري وانا من ابناء الجيل التاسع عشر . فلا دليل لدعوى المعترض هنه ولا بدعَ اذا انكرها معي عليهِ جهابذة عصرنا الافاضل القائمون باعلاء شان الانسانية لما يترتب عليها من التقييد بسلاسل العبودية في عصر النور والحرّية

وقال " انهُ يترتب على قولي لم ينشا الفرع الاوربي في اوربا ولكنهُ هاجر اليها من بر بى البولور . . . . . تيهٌ لا يذكر مع نبه الاسرائيليين " منكرًا عليَّ هجر الفرع الاوربي لانهما لم تطابق ما حصلهُ من المعارف الجغرافية فهل يصح ان يكون ذلك علةً لانكار حقيقةٍ علمية اجمع عليها الاثاريولوجيون (العلماء بطبيعة الانسان) واني لاعذرهُ اذ لم يتيسر لهُ حتى الآن الاحاطة بمثل هذه الفوائد ولكن أما كان يجب عليهِ الاّ يتصدّى لتخطئتي قبل الاستفهام والاستيضاح . ثم اني لا انكر عليهِ كون ذلك التيه عظيمًا ولكنني احثهُ على مطالعة تاريخ النحل البشرية لعلهُ متى وقف على ما هو اعظم من هذا التيه يتدارك سبق النكر الى استعظام ما ليس عظيمًا بالنسبة الى غيرهِ ويعلم ان خفاء موجب التيه المذكور عن معارفهِ ليس حجةً تُرَدُّ بها الحقائق الراهنة . وكأني بهِ يطلب بيان هذا الموجب فاذكر خلاصة ما قرّر العلماء الخابرون دفعًا للابهام مختصرًا الكلام في هذا المطلب المفيد الذي أُلّفت فيهِ مجلدات ضخمة

قد ذكرتُ في المجلد الثاني من المقتطف الصفحة ٢٥٤ وما يتلوها ان قرار الانسان الاول انما كان في بقعةٍ من بقاع اسيا المركزية (لم يمكن الى الآن تحديدها) مستندًا الى براهين علمية تؤيد هذا القول وفي الصفحة ٣٢٧ من المجلد المذكور ابنت ان آثارهُ في اوربا تدل على وجودهِ فيها في بداية الدور الجيولوجي الرابع على ان آثارهُ في آسيا تدل على وجودهِ فيها منذ منتصف الدور الجيولوجي الثالث اذ كانت حرارة الجوّ في سيبيريا وستبرج معتدلة كما افاد العلامتان هير وصبورتا فكانت نباتاتها كثيرة تكفي للقيام بغذاء آكلات العشب الضخمة القد كالفيل القديم Elephas primigenius والكركدن Rhinoceros tichorinus والرنة Cervus tarandus ثم انحطت الحرارة فبرد الجوّ فطابت هذه الحيوانات الجهات الجنوبية الدافئة فتبعها الانسان طمعًا في صيدها لانهُ كان يتقات بها وفرارًا من البرد القارس اينما يجد ان تريك من آثارهِ في تلك المحلات ما يستدلُّ بهِ على احوالهِ وشؤونهِ . فهذه الآثار التي عنيَ بكشفها علماء هذا العصر المحققون في طبقات الارض وزينوا بها معارض الخف الاوربية ثبّتت ما جاء في الزند اوبستا بخصوص هجرة النوع الابيض المعروف بالايراني (وهو الذي سماهُ كونهِ بالقوقاسي) على ما

اشرت اليه في مقالتي المشار اليها . فاتضح اذًا ان موجب التيه الذي استعظمهُ صاحبنا الاديب هو اندفاع الحيوانات من الجهات الشمالية بالبرد القارس وشدة افتقار الانسان معاصرها الى اتباعها لتوقف معيشتهِ عليها . وهنذا اذكر قولاً من اقوال العلامة المدقق دوكاترفاج اثباتًا لما اوردتهُ من قبل بخصوص منشا الفرع الاوربي قال في مؤلفهِ النوع الانساني المطبوع في باريس ١٨٧٧ في الفصل العشرين " قد رأينا انهُ (اي الفرع الاوربي) هاجر من البولور ومن هندكوش حيث لا يكون الصيف الاَّ شهرين فانحدر الى بخارا وجانب بلاد فارس وكابل قبل وصولهِ الى الهند فيكون قد خطَّ بسيرهِ احدى عشرة محطة قبل وصولهِ الى الكنك ومن ثمَّ كان مسيرهُ وئيدًا محفورًا بالابطال الاتقياء الذين صوَّبوا سهامهم لقتل ركشاسا وتوغلوا بالفتح " وذكر في مواضع اخرى من الكتاب المذكور ما يؤيد ذلك . ولا يخفى عن المطالع اللبيب ان مسألة كهذه اجمع على التسليم بصحتها علماء اوربا لا يصحُّ ردّها بدون حجة قاطعة فلو وجد عليها اعتراض لكانوا هم ادرى بهِ واولى

ومما استغربتهُ من صاحبنا الاديب تظاهرهُ بالدفاع عن قولي " ومن يعرف قيمة تلك السهول الخصبة . . . وكانت في زمن الرومانيين تقوم باود اكثر من اربعين مليونًا الخ " فقد اتعب نفسهُ في هذا الدفاع على غير طائل لان القرينة في قولي " وهي الآن لا تفي باحتياج المليونين من اهلها " تدلُّ دلالة واضحة على ان المقصود بها هذه البلاد لا دمشق وغوطتها فقط . ثم ان انكارهُ عليَّ قولي انها كانت تقوم باود اكثر من اربعين مليونًا لأعظم شاهد على ما عندهُ من المعارف الجغرافية والتاريخية . لا يخفى حضرتهُ ان عدد الرجال المختطي السيف من اسرائيل ويهوذا كان في ايام داود النبي مليونًا وخمس مئة وسبعين الفًا كما جاء في سفر الايام الاول ص ٢١ فعلى فرض هذا العدد ثلث الذكور وبذلك نكون قد تساهلنا جدًّا في تقليل العدد يكون عدد الذكور من اسرائيل ويهوذا . . . . ٤٧١ نفس وعدد الاناث مساوٍ لعدد الذكور فاذا اضيف عدد الاناث الى عدد الذكور واضيف اليهِ عدد اللاويين ايضًا والكنعانيين والعبيد الذين كانوا في الارض وهم مليون على الاقل بتقدير المقدرين يكون عدد سكان فلسطين في ايام داود الملك اكثر من عشرة ملايين ونصف ومعلوم ان مساحة فلسطين لم تزد عن عشرة آلاف وخمس مئة ميل مربع وذلك نحو خمس مساحة سورية باسرها فيخرج للميل المربع في فلسطين الف نسمة . وان رابهُ تعديل عدد الذكور اعلمناهُ ان جيش يهوشافاط ملك يهوذا وبنيامين فقط كان . . . . ١١٦٠ رجل فيكون تعديلنا على غاية التساهل . هذا ومعلوم من مراجعة تواريخ هذه البلاد وما لم يزل باقيًا من الآثار ان بقية اقسام سورية لم تكن اقل سكانًا البتة من فلسطين فيكون

عدد اهاليها بموجب التعديل المذكور اكثر من خمسين مليونًا . بل لو تساهلنا الى غاية ما يحتمل فحسبنا ان عدد المختطي السيف من اسرائيل ويهوذا كان في ايام داود نصف عدد الذكور فقط يكون عدد سكان سورية ٣٧ مليونًا . وان زعم صاحبنا بعد هذا التعديل ان البلاد اذ ذاك لا تكفي سكانها بخبرهُ ان اليهودية فقط مع قلة خصب اراضيها بالنسبة الى خصب سائر اقطار سورية كان عدد سكانها في ايام يهاس اربعة ملايين نسمة بشهادة المورخين المتقدمين ومصادقة المتأخرين المدققين كالعلامة فولني الفرنساوي وغيره فكانت اكثر ازدحامًا بالسكان من كل ممالك اوربا وبالأولى كانت بقية اقسام سورية اكثر منها سكانًا . تشهد بذلك حروب دمشق وقوة ملوكها وعدد سكان انطاكية وحدها الذين زادوا على سبع مئة الف نسمة وبصرى التي كانت في زمن الرومانيين مملكة تشتمل على ٤٣ مدينة وكرسيًا لرئيس اساقفة يترأس على ٣٣ اسقفًا ومملكة تدمر وسواحل البحر ونواحي الحصن وسائر اقطار سورية . واعلمي بكثرة مناقشات المورخين والمنتقدين في هذا الموضوع لم اقل ان عدد سكان سوريا اربعون مليونًا بل انها كانت تقوم باود اكثر من اربعين مليونًا سواء كانوا من سكانها ام من غيرهم وهذا كثير الوقوع فربَّ بلادٍ صغيرة تكفي لمعاش اضعاف اضعاف سكانها . هذا وكان على صاحبنا المحقق قبل ان يقول "ولم ينقل ولا يظن ان سوريا اذ ذاك فاقت اوربا بازدحام السكان" ان يلحق بمعارفهِ السامية قليلاً مما نقل في هذا الموضوع فكان اغنى نفسهُ عن التعب واغنانا عن الرد

وقد اتضح انني تحرَّيت بما ذكرت عن الدمشقيين مطلب علماء الاخلاق فذكرت صفات العرب توطئةً لبيان شرف محتدهم وبذلك ابنت نسبتهم الى غيرهم وما هي منزلتهم في السلم البشري ولم اقتصر على ذكر الصفات الطبيعية ولكنني اوضحت شيئًا من صفاتهم الادبية واشرت اشارة خفيفة الى اشياء يتوقف على اصلاحها نجاحنا وفلاحنا . وفي كل ذلك اقتديت باكابر العلماء الذين يغارون على شرف بلادهم ويرغبون في نجاح وطنهم ولا يقعدون الجبن عن الاهتمام بما يؤدي الى ترقية هيئتهم الاجتماعية فلا محل لتوهم صديقنا الاديب انني اعتمدت الجدل والوعظ اذ ان وجه ايراد ما اوردتهُ غير خفي عن ذوي البصائر . ومن البيّن انني لم اتوغل في المباحث التاريخية فلم اذكر مناقب السادة الافاضل الذين ازدانت وما زالت مزدانة بهم هذه المدينة الجميلة وفقًا لمقتضى المطلب الذي تحرَّيتهُ اذ لو اتبعتُ ذلك لشردت عن طريق علم الاخلاق على انني استجدت همة هولاء الغيورين للقيام بما تقتضيهِ محبة الوطن . ولله درُّ صاحب المقالة الموسومة بالقول الحق لانهُ لم يخف من غدر ذئب يصلي ولم يمنع حجاب التعصب بزوغ اشعة الحرّية من سمائه فكرته الوقادة فاتخذتُ مقالتهُ المشار اليها ردًا على ما بقي مما اعترضهُ صاحبنا المعترض حرصًا

على الوقت الثمين وما لم يذكر فيها يثبته العيان وساعود الى الكلام في هذا الموضوع ان شاء الله في وقتٍ لا يشغلني فيهِ عن خدمة الوطن شاغل غير مكترثٍ بما يقول العاذلون وحسبنا الله وهو نعم الوكيل

تاريخ بابل واشور

لجناب جميل افندي نخله المدور (تابع ما قبله)

وعاد سنحاريب بعد ذلك فلمَّ شعث دولتهِ وجدد رونق ملكهِ ولما استجمعت لهُ اسباب العزة والصولة جرَّد حملة وسار بها الى بابل مدينة الفتن فواقعها مرةً أُخرى . وكان السبب في ذلك ان سنحاريب لما قهر بابل في النازلة الاولى ولى عليها رجلاً من اوليائهِ يقال لهُ بعليبوس فاستمرَّ امرها في يدهِ الى ان كانت نكبة سنحاريب عند اورشليم وعاد بالفشل والخسران فاغتنم مرودخ بلادان تلك الفترة وحدثتهُ نفسهُ باسترجاع الملك فاخذ في اسباب ذلك وحشد اولياءهُ واتباعهُ وزحف على بابل بجمعٍ كثير فاستبشر البابليون بعودتهِ وتغيروا عن طاعة بعليبوس وجاهروا بالفتنة والهرج واتصل الامر بسنحاريب فبادر بعَدَدهِ وعُدَدهِ ودهم بابل بجيشٍ لا يحصى فبرز اليهِ مرودخ في طليعة اصحابهِ والتحمت الحرب بين الفريقين اياماً وآخر الامر كانت الغلبة لسنحاريب فانهزمت جيوش الكلدان وتمزَّق سوادهم بعد ان هلك منهم خلقٌ كثير وفرَّ مرودخ بلادان وغمض خبرهُ آخر الدهر . ثم دخل سنحاريب بابل فاستأصل منها اعراق الفتنة ومهَّد السكينة والطاعة واستخلف عليها والدهُ اشور ناردين وهو بكر ابنائهِ

ولما فرغ سنحاريب من امر بابل وجَّه غارتهُ ناحية المشرق فاممن في البلاد ووطئ من الاقاليم ما لم يبلغ اليهِ احدٌ ممن سلفهُ حتى انتهى الى دنايي فدوَّخ تلك الارض جملةً واكثر من اراقة الدماء واتيان الفظائع وشنَّع وسبى ونهب وهدم كثيراً من المدائن والمعاقل وضرَّم عامَّتها بالنار . ولهُ على بعض الآثار في ذكر هذه الغزاة ما تعريبهُ اني ملكت الرجال والدوابَّ والغنم والبقر وافتتحت المدائن والقُرى ولم افارقها حتى غادرتها حطاماً

واستقرَّت البلاد بعد ذلك برهةً طويلة صماءَ عن زعازع الحروب وقديد الجيوش وصلصلة الحديد واستولت فيها الدعة والسكينة وعلا طالع سنحاريب الى اوج سعدهِ وعظم قدرهُ في العيون والمسامع وتمكنت هيبتهُ في القلوب ووقع اجماع المؤرخين على انهُ لم يقم في ملوك اشور من ضاهاهُ سطوةً واقداماً ولا داناهُ عزَّةً وسلطاناً . وفي تلك الاثناء فتق لهُ عقلهُ ان يجدِّد بناء نينوى ويجعلها بحيث لا تقارنها مدينة في العالم فشرع في حشد ارباب الصناعة من البنائين